مكتبتنا العربية

المقاومة العربية للغزو المغولي الأيلخاني للعراق ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م

الدكتور صادق ياسين الحلو
جامعة بغداد / كلية التربية
قسم التأريخ

ان ارادة الصمود والتحدي موجودة في روح هـذه الأمة حتى في فترات الضعف والتدهور والمحن والنكبات ، وقد صدت ولمرات عديدة غزاة جاؤوها من جهة الشرق ومنهم المغول الايلخانيون مستندة الى عمقها الحضاري وتأريخها الاصيل .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

بداية اعتداءات المغول على الدولة العربية الاسلامية :

توجـه المغـول في توسعهم نحو الغـرب وبدأوا بالاعتداءات على ممتلكات الدولة العربية الاسلامية ومركزها العراق ، وتعد التحرشات الاولى للمغول بمثابة جس نبض لقوة البلاد العسكرية وامكانيات جيشها ووضع الحسابات والخطط على هذا الاساس لاحتلالها[١] .

كان أول الاعتداءات المغولية على العراق في عام ٦١٧هـ ـ ١٢١٧م عنـدما قصدوا مدينـة أربل ، فبعث الخليفة الناصر لدين‌الله بقواته الى صاحب أربل وعندما علم المغول بأستعداد قوات بغداد خافوا من لقائهـم فرجعوا الى همدان[٢] .

وحصل أول عدوان على بغداد في عام ٦١٨هـ - ١٢١٨م عندما اقترب المغول من بغداد فارتاب الخليفة من ذلك واستخدم الاجناد وأنفق الاموال استعدادا لمواجهة المغول(٣) .

ثم تركزت هجمات الغزاة بعد ذلك على المناطق الشمالية من العراق ، فقصدوا بلاد الجزيرة وسنجار واستباحوا أعمال أربل عام ٦٢٨هـ - ١٢٣٠م وفي عام ٦٢٩هـ - ١٢٣١م أقبل طائفة من التتار وأغاروا على شهرزور من أعمال أربل فندب الخليفة صاحب أربل وجهز العساكر وأرسل الى سائر البلاد للجمع والاحتشاد وبعد أن أقام المغول عدة شهور اضطروا الى التراجع الى بلادهم(٤) .

وحاصر المغول في عام ٦٣٤هـ - ١٢٣٦م أربل وخربوها بالمجانيق الا ان اهلها صمدوا في قلعة المدينة وكان نائب الخليفة فيها ، وذكر ان الخليفة جهز جيشاً لقتالهم فأنهزم التتار(٥) .

وعلى الرغم من المقاومة التي أظهرتها جيوش الخلافة العربية ظل المغول يكررون هجماتهم بهدف احتلال عاصمة الدولة بغداد . ففي عام ٦٤٢هـ - ١٢٤٢م قصد التتار بغداد فخرجت عساكرها للقائهم ولم يكن للتتار طاقة بهم فولوا منهزمين على أعقابهم تحت جنح الظلام(٦) .

وفي السنة التالية ٦٤٣هـ - ١٢٤٣م وصل الخبر الى بغداد من أربل يفيد بأن المغول خرجوا من همدان في ١٦ ألف مقاتل وقصدوا جبل حمرين فأمر الخليفة بالاستعداد لهم وعندما اقترب المغول من بعقوبا كان في ملاقاتهم جيش الخليفة بقيادة الشرابي فألتقى بجيش المغول فكانت معركة عظيمة انتصر فيها جيش الخلافة وانهزم المغول هزيمة نكراء وولوا هاربين(٧) .

وقرر المغـول في اجتماع الجمعية الكبرى عام ٦٤٩هـ - ١٢٥١م ارسال حملتين الأولى بقيـادة قبلاي خان الى الصين والثانيـة الى فارس والعراق وآسيا الصغرى بقيادة هولاكو خان(٨) .

وهكذا يظهر ان الغزاة ادركوا صعوبة اقتحام بغداد في الثلاثينات والاربعينيات من القـرن السابع الهجري لقوة الجيش العربي الاسلامي المدعـوم من أهالي المـدن العراقية وبلاد الشـام ، لذلك اتبعوا سياسـة استراتيجية باضـعاف أطـراف الدولة وبدأوا بغـزو المناطق الشمالية من العراق وبعض مدن بلاد الشام ، لذلك اتبعوا سياسة استراتيجية لأضعاف اطراف العباسيين والحيلولة دون وصول الامدادات الى بغداد في لحظـة هجومهم عليها .

وقد كان للخليفة المستنصر بالله دور أساسي في اكثار الجند وادامة التعبئة وتفقد الحصون وحفر الخنادق وترميم القلاع ، وقد فوتت هذه الاجراءات الفرصة على المغول ومنعهم من السيطرة على أعمال بغداد(٩) .

ولم يكسب المغـول من اعتداءاتهم الاولى زمن الخليفـة الناصـر والمستنصر بالله أية مكاسب جوهرية على المستوى السوقي ، بل اقتصرت أعمالهم على النهب والتخريب والقتل (ويعود الفضل في ذلك الى اليقضة والحذر التي كانت عليهـا الخلافـة وتحشيد طـاقات الجيش العباسي العسكرية .

الخلافة أيام المستعصم بالله :

كانت الخلافـة العباسية في أيام المستعصم تعيش أحرج فترة من تأريخها ولم يكن اهتمام الخليفة بالمؤسسة العسكرية العباسية على مستوى ما يحيط بالدولة العربية من أخطار جسيمة ولعل السبب في عدم الاكتراث هذا يعود الى استهانته بقوة الغزاة الجدد(١٠) .

وزيادة على ذلك كان رجال المؤسسة الادارية في زمن المستعصم منقسمين فيما بينهم كل منهم يعمل بالضد من الاخر دون النظر االى العواقب واستمر هذا الموقف الانقسامي حتى في كيفية مواجهة الخطر المغولي حيث كان الدويدار وأصحابه لا يؤيدون ما يقترحه الوزير ابن العلقمي وكذلك كان الوزير لا يؤيد ما يقترحه الدويدار واصحابه(١١) ، أن هذا التشتت في المواقف والاصطراع على النفوذ جعل الادارة التنفيذية للخليفة غير فعالة •

وكان هناك اتجاهان متعارضان داخل الدولة بخصوص التهيؤ ومواجهة المغول أولهما يتزعمه الوزير مؤيدالدين بن العلقمي الذي لم يرغب في بناء قوة الجيش لانه سعى الى أن تبقى الخلافة ضعيفة(١٢) •

أما الاتجاه الثاني فقد تزعمه الدويدار الاكبر الذي دعا الى تقوية الجيش ودعمه للوقوف بوجه خطر المغول والاستعداد لمقابلتهم •

وبشكل عام كانت الظروف المحيطة بالخليفة أقوى منه ، كما أن استنجاداته بملوك الاطراف لم تلق أية استجابة •

الدور الفارسي التآمري في التمهيد لغزو بغداد :

ساعد الفرس المغول في غزوهم لبغداد فلعبوا دورا تآمريا من خلال مواقعهم في داخل الدولة العباسية وضمن الدولة المغولية لازالة الخلافة العباسية واحتلال عاصمتها وقتل الخليفة ، ويتمثل هذا الدور في شخصيتين الاولى شخصية الوزير ابن العلقمي والثانية بشخصية نصيرالدين الطوسي •

دور الوزير مؤيدالدين بن العلقمي :

يؤكد الكثير من المؤرخين على ان الوزير ابن العلقمي كان السبب في القضاء على الخلافة العباسية بسبب ما كان بينه وبين التتار من مراسلات

فذكر المقريزي (أن جواسيس هولاكو وصلوا الى الوزير في سنة ٦٥٠هـ - ١٢٥٢م وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من امراء بغداد بعدة مواعيد) وكذلك فان الوزير ارسل غلامه مع أخيه الى المغول يطمعهم بالعراق وانه سيسهل عليهم السيطرة على العراق وطلب أن يكون نائبهم في البلاد فوعدوه بذلك[١٣] . لهذا أخذ ابن العلقمي يعمل على اضعاف الخلافة من خلال تقليل عدد الجند حيث كان عددهم يزيد على ١٠٠ الف مقاتل وجعلهم يعملون بالتجارة وأخذ يراسل التتار ويراسلونه[١٤] .

ويؤكد ابن خلدون خيانة ابن العلقمي عندما يذكر (بأنه أرسل الى ابن الصلايا بأربل وكان صديقا للوزير يطلب منه أن يستحث المغول للزحف على بغداد ، كذلك فان ابن العلقمي عمل على عدم ايصال المكاتبات الى الخليفة وبخاصة مكاتبات بدرالدين لؤلؤ وقطع عن الخليفة الاخبار حيث كان الوزير ابن العلقمي يعمل بكل طاقاته لاضعاف القوة العسكرية بتسريح المقاتلين من الجيش العباسي ، وراسل بعض العمال في الولايات ليؤلبهم على الخليفة ، واتصل سراً بالمغول وسرب اليهم الاخبار وحرضهم على الاسراع في الغزو لعاصمة الدولة العربية الاسلامية بغداد .

ويذكر براون أيضا أن الدويدار وعزالدين الشرابي بعد أن فشلا في صد قوات المغول وخسرا جيشهما أخذا يحرضان الخليفة على مغادرة بغداد والذهاب الى البصرة غير أن الوزير لم يوافقهما على هذه الخطة ولكن تردد الخليفة في اتخاذ القرار فوت عليه الفرصة لان المغول أحاطوا ببغداد .

كما أن دور الوزير الخياني يتمثل في دوره في اقناع الخليفة بالتخلي عن المقاومة والخروج الى المغول أثناء حصارهم لبغداد ، وأخبر الخليفة

بان هولاكو يرغب أن يزوج ابنته بأبنك الامير ابو بكر ويبقيك في منصب الخليفة مقابل الاعتراف بطاعته فخرج الخليفة الى هولاكو[١٦] الذي قام بقتله .

دور نصيرالدين الطوسي الفارسي :

ساهم نصيرالدين الطوسي في تشجيع المغول على غزو بغداد واحتلالها وكان دوره يشبه دور ابن العلقمي من حيث الخيانة لمن ائتمنه ووثق به فقد كان سيده خورشاه زعيم الملاحده عندما اقنعه بضرورة التسليم والتخلي عن المقاومه فكان السبب في سيطرة المغول على قلعة ميمون در وبقيه البلاد ومقتل خورشاه فيما بعد[١٧] .

فأصبح نصيرالدين الطوسي يصاحب هولاكو في حملته وكان المغول يتخوفون من بغداد لكثرة سكانها ووفرة جيوشها وبسبب كثرة ما فيها من الاسلحة[١٨] .

وتذكر بعض المصادر التأريخية ان هولاكو كان متردداً في الهجوم على بغداد خوفا من العاقبه وما اثير حول المصير السيء الذي ينتظر كل من هاجم بغداد[١٩] . لذا سأل هولاكو حسام الدين المنجم الذي كان مصاحباً له بأمر من القرآن فحذره من عواقب غزو بغداد وعندما سأل هولاكو نصيرالدين الطوسي كذب تلك الأقاويل مستشهداً بمقتل الكثير من الخلفاء ولم يحدث ما يؤكد تلك الاقاويل ، وأكد لهولاكو أن الذي سيحدث هو أن يحل هولاكو محل الخليفة ، فتفاءل هولاكو بما قاله له نصيرالدين وازداد نشاطه في العمل على احتلال بغداد[٢] .

وهكذا يتضح حقد هذا الفارسي على الدولة العربية الاسلامية وما بذله من جهد في اقناع هولاكو بالهجوم على بغداد والتخفيف من المخاوف التي كانت تسيطر على تفكير هولاكو وأمرائه وتجعله متردداً في التوجه لغزو بغداد .

الغزو المغولي على بغداد والمقومة العربية :

واتخذت المقاومة العربية للغزو المغولي للعراق عدة وجوه :ـ

اولا ـ المقاومة العسكريه في معركة دجيل •

ثانيا ـ صمود الخليفه واستعداد اهل بغداد للمقاومة •

ثالثا ـ مقاومة اهالي المدن العراقية الاخرى •

رابعا ـ مقاومة بلاد الشام •

خامسا ـ نجاح المقومة العربية في ايقاف الغزو المغولي •

١ ـ المقاومة العسكرية في معركة دجيل :

لم تكن قضية خيانة ابن العلقمي وتآمره مع نصيرالدين الطوسي هي العامل الوحيد الذي أفسح المجال أمام المغول بالتقدم لغزو بغداد واحتلالها بل كانت هناك عوامل عديدة اخرى منها حالة التجزئة التي عانت منها الدولة العربية الاسلامية في ذلك الوقت وحالة الاسترخاء والغرور وعدم تقدير قوة الخصم والتصدي لتحدي الغزاة ، واستغلالها طاقات الأمة الكامنة كلها عوامل أساسية عطلت الطاقات العسكرية الكبيرة لدى الأمة ولم توفر لها فرصتها للتصدي لجموع المغول العسكرية الغازية[٢١] •

جهز المغول اعداداً كبيرة من الجند قاصدين احتلال بغداد مركز الحضارة العربية وعلى الرغم من ضخامة العدد والتسليح للجيش المغولي فأن روح المقاومة العربية عند القوة العسكرية في جيش الخليفة لم تضعف أو يصيبها التردد والتخاذل •

بدأ هولاكو بالاستعداد لغزو بغداد فأمر قائده بانجور فومان ليعبر دجلة ويحاصر بغداد من جانبها الغربي وهو جناح جيشه الغربي وكيثوب جتو من ايران الوسطى ويكون جناح جيشه الايسر ، أما هولاكو ومن معه من الامراء الفرس فكونوا قلب الجيش المهاجم[٢٢] ، وفي التاسع من

محرم من عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م عند وصول نبأ تحركات جيش المغول الى الخليفة امر قادة جيشه بالخروج بجيش بغداد ومواجهة هولاكو • فاقام الجيش العباسي معسكره بين بعقوبة وابو جسرى وعندما سمع قادة الجيش العباسي بعبور المغول الى الضفه الغربية عبر نهر دجلة للاحقتهم • ويصف الديار بكري مقاومة اهل بغداد عندما علموا بتوجه الغزاة نحوها فيقول (اجتمع اهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو وخرجوا الى ظاهر بغداد ، ومشى عليهم هولاكو بعساكر فقاتلوا قتالا شديدا الى ان نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو اقبح كسرة وسلق المسلمون خلفهم واسروا منهم جماعة وعادوا بالاسرى ورؤوس القتلى الى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدو)[٢٤] •

ويبدو ان ابن العلقمي استمر في دوره التآمري (فأرسل في تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط دجلة (الدجيل) فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم ، وكان الوزير قد أرسل الى هولاكو يعرفه بما فعل ويأمره بالرجوع الى بغداد ، فرجعت عساكر هولاكو الى ظاهر بغداد)[٢٥] •

وبعد هذه المعركة تمكن قائد الجيش العباسي الدويدار الصغير من النجاة والعودة الى بغداد ، بينما استمر باتجو في التقدم حتى نزل بقواته في الجانب الغربي من بغداد الذي خلا من أهله ، فشرعوا بالرمي بالنشاب الى الجانب الشرقي[٢٦] •

لم تؤد خسارة الجيش العباسي لمعركة دجيل الى اضعاف الروح المعنوية لدى من تبقى من جنود الخلافة ، بل أن اصرار أهالي المدينة على المقاومة وروحهم المعنوية ظلت عالية[٢٧] •

ولما كان العمران ببغداد الغربية مبعثراً فلم يكن فيها سور عام يقيها الهجمات فلذلك تقرر اخلاؤها وتركيز الدفاع عن المدينة الشرقية[٢٨] .

وتحرك هولاكو من خانقين وزحف بالجيش المغولي نحو بغداد فنزل في الجانب الشرقي وبهذا أحاطوا بها من ناحيتيها الغربية والشرقية[٢٩] .

ومع كل تلك الظروف التي أحاطت ببغداد وتطويقها بالجند المغول من كل الجهات لم تستسلم المدينة للغزاة بل أصرت على المقاومة والصمود بوجههم ، وأبت الا ان تدفع الشهداء ثمناً لاحتلالها .

٢ ـ صمود الخليفة واستعدادات أهل بغداد للمقاومة :

قرر الخليفة المستعصم بالله أن يقود المقاومة والصمود على الرغم من كل ما يحيط به من ظروف صعبة بوجه غزو المغول ، ففي ١٠ رمضان عام ٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م رد الخليفة بعبارات شديدة على تهديدات هولاكو له برسالة أرسلها له يطلب فيها أن يهدم الحصون ويردم الخنادق[٣٠] . ثم أعقب ذلك بارسال هدية صغيرة الى هولاكو مع تحذير من خطر المس بأسرة العباسيين[٣١] .

ورفض الخليفة طلبا من هولاكو بتسليمه الدويدار الصغير أو ولد الدويدار الكبير[٣٢] .

وترافق مع صمود الخليفة واصراره على كبح الغزو المغولي اصرار أهلها في الدفاع عنها حيث نصبوا المنجنيقات وأصلحوا الاسوار[٣٣] .

وبالوقت الذي كان أهل بغداد يتحدون الغزاة بذل الوزير مؤيدالدين بن العلقمي قصارى جهده لتثبيط عزائم الناس وعدم تشجيعهم على التصدي للتتار فخرج (في جماعة من مماليكه واتباعه وكانوا ينهون

الناس عن الرمي بالنشاب ويقولون سوف يتم الصلح ان شاء الله فلا تحاربوا ، هذا وعساكر المغول يبالغون في الرمي)[٣٤] .

وفي اليوم الثاني والعشرين من محرم شرع المغول في الحرب وشرع الجيش العباسي بالدفاع والمقاومة والتحم الجيشان[٣٥] ودارت حرب طاحنه مدة ستة ايام حاول اثناءها هولاكو اضعاف الروح القتالية عند المدافعين عن المدينه فامر (ان تكتب ستة منشورات تفيد بان القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار ، وكل من لا يحاربنا لهم الامن منا ، ويربطوا هذه المنشورات بالنبال والقوها على المدينة من جوانبها الستة)[٣٦] .

لكن ذلك الاجراء المغولي لم يقلل من عزيمة المقاتلين الذين استمروا بالمقاومة حتى ان الحجارة التي يستخدمها جيش المغول في منجنيقاتهم لضرب بغداد قد نفذت لهذا (أخذوا يأتون بها من جبل حمرين وجلولاء وكانوا يقطعون النخيل ويرمون بقطعها بدلا من الحجارة)[٣٧] .

وظلت المدينة تتحدى الغزاة ، ولم يتمكن هولاكو من القضاء على المقاومة فيها واحتلالها الا باستخدام الحيلة والخديعة فأرسل (فخرالدين الدامغاني وابن الجوزي وابن درنوش الى المدينة ليخرجوا منها سليمان شاه وقائد جيش الخليفة الدويدار ومنحهم فرماناً تطميناً لهم وتقوية لموقفهم ، وقال أن الرأي للخليفة فله أن يخرج أو لا يخرج ، وفي يوم الخميس عشرة صفر خرج الرجلان فأعادهما ثانية الى المدينة ليخرجا اتباعهما حتى ينضموا الى قوات مصر والشام ، وعزم جند بغداد على الخروج معهم وكانوا حلقاً لا يحصى)[٣٨] .

غير أن هولاكو بدل أن ينفذ وعوده أمر بقتل الجميع وبذلك وجه ضربة الى المتبقي من القوة العسكرية للخلافة .

ومع كل ذلك بقيت روح التحدي هي الغالبة عند النفر الباقي في داخل المدينة ففي اثناء تلك الاجراءات (اصاب سهم عين هندو البتلجي ودل من اكابر الامراء فتملك هولاكو غضب عظيم)[٣٩] .

ووسط تلك الظروف رأى الخليفة انه لابد من خروجه بعد ان اخبره وزيره بن العلقمي بان هولاكو سوف لا يمسه بسوء غير ان الغزاة كانوا يخشون من بقاء الخليفة على قيد الحياة ، فلذلك قتل الخليفة في يوم الاربعاء ١٤ صفر ٦٥٦هـ - ١٥٢٨م[٤٠] .

وهكذا تمكن المغول من دخول بغداد واحتلالها وقتلوا مئات الالاف من سكانها ، واحرقوا مكتباتها ودور العلم فيها بعد ان قدمت المدينة الالاف من الشهداء دفاعاً عن حريته أهلها وكرامتهم .

٣ - أهل المدن العراقية ومقاومتهم للاحتلال المغولي :

لم تقتصر المقاومة العربية للغزو المغولي في العراق على بغداد وحدها بل امتدت لتشمل باقي مدن العراق التي وقفت بأمكاناتها البسيطة تصارع المحتلين الجدد .

فواسط قاوم أهلها جيش المغول وحاربوه برغم تفوقه عليهم في العدد والتسليح وقد قدمت المدينة ما يقرب من أربعين ألف شهيد[٤١] قبل ان يتمكن المغول من احتلالها .

أما أربيل فقد حذت حذو بغداد وواسط في الاستبسال والدفاع عن حريتها بوجه غزو الجيش المغولي ، ولم يتمكنوا من احتلالها الا بعد أن عهدوا الى بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل بذلك ، فقام الاخير بهدم أسوارها والاستيلاء عليها[٤٢] .

وثارت الموصل على المغول في عام ٦٥٩هـ - ١٢٦٠م عندما تولى الحكم الملك الصالح إسماعيل حكم المدينة ، فقام بأعداد جيش كبير ووزع عليه الاسلحه والاموال وحرض الناس على القتال وقال ان ملك مصر سيمدنا بالجيش حينما يعلم بالأمر[٤٣] . وحاصر المغول الموصل ونصبوا خمسة وعشرين[٤٤] منجنيقا لرميها ، فقرر أهل المدينة القتال والمقاومه وبعد شهر من الصمود حاول عدد من مقاتلي المغول تسلق أسوار المدينه فتصدى لهم المدافعون من اهل الموصل وقتلوهم جميعا ورموا برؤوسهم الى جيش المغول من اعلى الأبراج[٤٥] .

وبسبب عدم تمكن القوات المغولية من احتلال المدينة أرسل هولاكو تعزيزات عسكرية جديدة الى قواته ، فاضطر الملك الصالح الى طلب النجدة من صاحب حلب وصاحب مصر[٤٦] ، وفعلا أرسل صاحب حلب نجدات الى أهل الموصل لكن الجيش المغولي اشتبك معها وهي في الطريق .

وبهذا أصبح على المدينة أن تعتمد على امكاناتها الذاتية ، وبقيت مستعصية على الغزاة الى أن قلت الاقوات وتعذر وصول الامدادات الى أهلها فاضطر الملك الصالح الى طلب الامان له ولأهل المدينة فأجابه القائد المغولي ، لكن عند خروجه قبض عليه وعلى ولده وارسل الى هولاكو الذي أمر بقتلهما[٤٧] .

وهكذا قاومت الموصل والجزيرة الاحتلال المغولي ولو قدر للمساعدات العربية أن تصل الى المدافعين عنها لأستعصى على المغول دخولها[٤٨] .

ومن كل ذلك يظهر أن المقاومة في المدن العراقية للغزو المغولي كان لها أثر واضح في تأخير احتلال كل مناطق العراق ، كما انها الحقت

بالغزاة خسائر مادية وعسكرية ضخمة ، وظلت المقاومة تقلق الوجود الاجنبي وتجعل سيطرته محدودة ومحصورة ، وقد عزز من تلك المقاومة خروج القبائل العربية في الريف والبوادي على سلطة المحتلين الاجانب .

٤ ـ المقاومة العربية في بلاد الشام :

اتجه المغول بعد احتلال بغداد ومدن العراق الاخرى الى بلاد الشام ، ففي رمضان عام ٦٥٧هـ بدأ هولاكو بالتحرك لتنفيذ ما تبقى من الخطة المغولية المرسومة وهي احتلال بلاد الشام ومصر(٤٩) .

واثناء سير هولاكو الى الشام احتل خلاط وجبال حكار وقتل الكثير ممن وجده في طريقه ثم فتح الجزيرة واستولى على روحه ومنها سار الى دنيس ونصيبين وحرات وقد قاومت هذه البلاد الغزاة ، الا أن هولاكو تمكن من احتلالها بالقوة ، وكان هولاكو قد أرسل ولده اشموط الى بلاد الشام وأرسل الملك الصالح بجيش لاحتلال أمد(٥٠) .

وعندما وصل الجيش المغولي بقيادة أشموط الى حلب خرج لقتالهم جيشها واشتبك مع المغول في معركة حامية وعندما لم يستطع جيش حلب من صد المغول عاد الى المدينة وتحصن بها(١٥) . ثم عبر هولاكو بجيوشه الفرات وذهب الى حلب لمحاصرتها وحاول أن يعقد نوعاً من الاتفاق مع أهل حلب مفاده أن يترك شحنة في المدينة وأخرى في القلعة لانه لا يقصدهم بل يقصد سلطانهم الملك الناصر فاذا انتصر عليه (على الملك الناصر) ، فأقتلوا الشحنتين واذا انتصرنا فحلب والشام لنا ، الا أن حلب أبت الخضوع والتسليم وفضلت المقاومة فأستعد التتار لحصار المدينة ، ونصبوا عشرين منجنيقا يضربون بها حلب .

وصمدت المدينة وظلت تقاتلهم مدة خمسة أيام ، تمكن المغول بعدها من ثقب أسوار المدينة الا أن قلعتها بقيت صامدة تتحدى المغول(٥٢) .

واستمرت مقاومتها البطولية مدة أربعين يوما وكان القتال حامياً حتى كانت المجانيق والسهام تتقاطر من الجانبين وجرح بعض القادة المغول حتى احتلت القلعة آخر الامر(٥٣) .

وتوجه المغول بعد ذلك الى دمشق واحتلوها سلماً الا أن قلعتها قاومت الغزاة فنصب عليها المغول عشرين منجنيقاً ، تمكنوا بواسطتها من أحداث شقوق في القلعة واستطاعوا احتلالها(٥٤) ، واحتل المغول بعدها حماه وبعلبك ولكن عند وصولهم الى مدينة نابلس استعصت عليهم ولم يتمكنوا من احتلالها الا بعد قتال طويل(٥٥) .

واستمرت غارات المغول على بلاد الشام حتى وصلت الى أطراف غزه وبيت جبريل وغيرها(٥٦) .

وتصدت القوات العربية للمغول مدة سنتين على الرغم من محاصرتها وقد استمر القتال طيلة تلك المدة حتى نفذت مؤونتهم وذخيرتهم(٥٧) .

وفي عام ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م حاصر المغول ماردين لأول مرة فقاومتهم المدينة وعجزوا عن احتلالها فرحلوا عنها الى ميافارقلين وعاد المغول الى محاصرة ماردين مرة ثانية واستمرت مقاومة أهل المدينة لهم مدة ثمانية أشهر وعجز المغول من الاستيلاء عليها لكن الخيانة والغدر أدت الى ايقاف القتال عندما دس السم الى الملك السعيد فأنتهت بذلك المقاومة(٥٨) وتم احتلال المدينة .

٥ - نجاح المقاومة العربية في صد المغول :

تكللت المقاومة المستمرة للعرب القاطنين في بلاد الشام ومصر للموجة المغولية بالنجاح والانتصار على المغول ، وكانت الظروف لها دور في تأجيج روح التصدي والمقاومة للسيطرة الاجنبية حيث تعرضت بلاد

الشام ومصر لعدة حملات صليبية كان لها أثر في خلق الاستجابة الصحيحة والناجحة لمواجهة أي تحدٍ خارجي .

الانتصار العربي في معركة عين جالوت :

كان الكثير من الامراء عساكر الشام قد اتجهت الى مصر بسبب الخطر المغولي ومن بين أولئك الإمراء كان ركن‌الدين بيبرس الذي سار مع أصحابه الى غزه فأستدعاه الملك المظفر قطز صاحب مصر(٥٩) . وفي أثناء ذلك كان وفد مغولي مؤلف من واحد وأربعين رجلا قد أرسل من هولاكو الى مصر يحملون التهديد والوعيد اذا لم تقدم مصر يمين فروض الطاعة(٦٠) ، فجمع الملك قطز أمراء مصر وعرض عليهم رسالة الوفد المغولي وسألهم الرأي فأتفقوا على قتال المغول(٦١) .

وعندما خرج الجيش العربي الاسلامي لقتال المغول أرسل بابيرو الذي كان في طليعة جيش المغول الى كيتوبوقا الذي كان بالقرب من بعلبك يخبره بتحرك جيش مصر فأمره كيتوبوقا بالثبات(٦٢) ، وكان الامير ركن‌الدين بيبرس البندقداري يقود طليعة الجيش العربي الاسلامي ليتعرف أخبار المغول(٦٣) فرآهم بيبرس بابيرو قبل وصول كيتوبوقا وطارده مع بقية الجيش حتى نهر العاصي(٦٤) .

وسبب هذا الانكسار للقوات المغولية على أيدي القوات العربية غضب كيتوبوقا فأقبل معتمداً على قوته وسطوته وكان الملك قطز قد عبأ الجيش في كمين وأعده خير اعداد ثم ركب هو بنفسه ، وثبت مع نفر قليل من الجند وقاتل كيتوبوقا مع عدة آلاف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس في عين جالوت فقذف المغول بسهامهم وهاجموا الجيش العربي الاسلامي الذي تراجع أمامهم حتى قادهم الى الكمين فخرج عليهم الجيش

من ثلاث جهات وقاتلوهم قتالا مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار فتضعضعت قوة المغول حتى انهزموا هزيمة منكرة ووقع قائدهم كيتوبوقا بالأسر الذي أمر الملك قطز بقتله[٦٥] .

طارد العرب المغول بعد هذه المعركة ووصلوا خلفهم الى حلب وهرب المغول الذين في دمشق فتبعهم المسلمون من دمشق يقاتلونهم وينقذون الاسرى العرب من أيديهم[٦٦] .

نتائج ودروس معركة عين جالوت :

كانت معركة عين جالوت أول انتصار كبير تحققه المقاومة العربية وتهزم فيه الغزاة وتوقف زحفهم ، وأولى نتائج هذه المعركة كان تحرير بلاد الشام من السيطرة المغولية لان الجيش العربي المنتصر ظل يطارد المغول وبقاياهم في مدن الشام[٦٧] .

وشجع هذا الانتصار أمراء آخرين على الثورة ضد المغول كما حصل في الموصل وماردين وميافارقين .

وتصاعدت روح المقاومة وبدأت تتحقق الانتصارات فأنتصر الجيش العربي عام ٦٥٩هـ - ١٢٦١م على ستة آلاف مغولي أرادوا احتلال حمص والحقت بهم هزيمة قاسية[٦٨] ، على الرغم من أن عدد الجيش العربي كان ألف وأربعمائة فقط .

لذا يمكن اعتبار معركة عين جالوت نقطة تحول في تاريخ الأمة ، فبدأت الجهود تتجه لتحرير بغداد من السيطرة المغولية ، عندما قاد أحد أفراد الاسرة العباسية الناجين من أيدي المغول وهو ابن القاسم أحمد بن الظاهر ، حملته لتحرير بغداد من المغول وقد جهزه بيبرس عام ٦٦٠هـ - ١٢٦٢م بجيش ومؤن وعتاد فتقابل مع المغول بالقرب من الانبار وحصلت

معركة قوية ولم يتمكن الجيش العربي من تحقيق الانتصار واستشهد منها القائد العباسي وهو يقاتل في سبيل هدفه[٦٩] .

وبالرغم من فشل هذه المحاولة الا انها تعبر عن تصاعد روح المقاومة والتصدي للتسلط المغولي في الاراضي العربية ، وفي عام ٦٧١هـ - ١٢٧٣م حاول المغول احتلال مدينة البيره فتصدى لهم الجيش العربي الاسلامي وحقق فيها العرب انتصارا رائعا وقتل الكثير من المغول[٧٠] .

وفي عام ٦٧٥هـ - ١٢٧٧م حققت المقاومة العربية نصراً رائعاً على المغول حيث حدثت وقعة اسلسيتن فبينما كان الجيش العربي بقيادة سلطان مصر سائراً لقطع طريق الدربند التقت مقدمة الجيش العربي بقوة من المغول تقدر بثلاثة آلاف مقاتل فتمكن القائد سنقر الاشقر من هزيمتهم[٧١] .

وفي عام ٦٨٥هـ - ١٢٨٧م أقبلت جيوش المغول بقيادة منكرتمرين هولاكو بمائة ألف مقاتل بينما كان السلطان منصور وجيشه البالغ خمسين ألف مقاتل مخيم بحمص فألتقى الجيشان في معركة كبيرة انهزم في نهايتها المغول وانتصر الجيش العربي الاسلامي .

وهكذا حققت المقاومة العربية انتصارا رائعا في تصديها الناجح للجيش المغولي وأوقفت غزوه وانقذت البلاد من تدميرهم وتخريبهم وبذلك أزال الصمود العربي ومنذ معركة عين جالوت خرافة القوة المغولية التي لا تقهر .

واضافة إلى المقاومة العسكرية العربية للغزاة التتار فأن العرب اجتثوا الغزاة المغول الايلخانيين وبالاخص من استقر منهم فيه بما فيهم الجند وذلك من خلال دخولهم الاسلام[٧٢] .

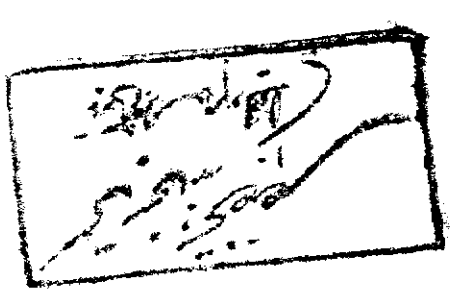

الخاتمـــة :

واجهت الغزو المغولي للعراق مقاومة عربية قوية منذ أيامه الأولى ، فلم تنحني الارادة العربية أمام المحتلين ولم يتمكن المغول من احتلال بغداد الا بعد أن قدمت آلاف الشهداء ، كما قاوم أهل المدن العراقية كالموصل وأربيل بنفس الروح وقدمت هي الأخرى شهداء كثيرين قبل أن تدنسها أقدام التتار •

وظلت السيطرة المغولية بفضل المقاومة العربية مقصورة على المدن ومراكزها حيث لم تتمكن من اخضاع كافة قوى القبائل العربية التي بقيت تتمتع بأستقلاليتها وعدم خضوعها لسلطة المحتلين •

وامتدت المقاومة العربية الى بلاد الشام ومصر حيث استطاع الجيش العربي الاسلامي ان يوقف تقدم الغزاة عند حدهم ويدحرهم في معـارك متعددة كا آخرها معركة عين جالوت التي قضت على اسطورة المغول الذين لا يقهرون وصعدت من روح المقاومة التي أخرجتهم من بلاد الشام •

وبعـد اتمامهم احتلال العراق لم يستطع المغول رغم احتلالهم لـه احداث تغيرات في بنى المجتمع وعاداته وتقاليده ومعتقداته بل حصل العكس فالمجتمع العربي في العراق استوعبهم واندمجوا في المجتمع العربي الاسلامي وتحولوا من الوثنية الى الاسلام •

وهكذا يظهر أن الأمة تمتلك دائماً ، القدرة على التجدد والاستمرار لامتلاكها مقومات التقدم والنهوض ، ولذلك فهي قادرة على رد الغزاة ودحرهم حتى في فترات الضعف والتصدع مستندة الى عمقها الحضاري وتأريخها المجيد •

هوامش البحث :

(١) الحلو ، صادق ، الجيش والسلاح منذ احتلال بغداد حتى العصر العثماني ، بحث تحت الطبع ضمن موسوعة الجيش والسلاح ، ج ٥ ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ٥ .

(٢) ابن كثير (اسماعيل بن محمد) ، البداية والنهاية ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٩٠ .

(٣) الذهبي (محمد بن عثمان) ، دول الاسلام ، ج ٢ ، حيدرآباد ، ١٣٦٥ ، ص ٩٢ .

(٤) ابن العماد (أبو الفلاح عبدالحي) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٥ ، القاهرة ، ١٣٥٠ ، ص ١٥٩ .

(٥) المقريزي (أحمد بن علي) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٥ .

(٦) الحلو ، صادق ، نفس المصدر ، ص٨ .

(٧) الذهبي ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٨) براون ، أدوارد جرانفيل ، تأريخ الأدب في ايران ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ص ٥٦٥ – ٥٦٦ .

(٩) الحلو ، صادق ، نفس المصدر ، ص ٩ .

(١٠) أيضا ، ص ١٠ .

(١١) الهمداني (رشيدالدين) ، جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٧٢ .

(١٢) ابن الفوطي وعبدالرزاق بن أحمد ، الحوادث الجامعة ، بغداد ، ١٣٥١ ، ص ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(١٣) ابن تغري بردي (جمال‌الدين ابو المحاسن) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة ، ج ٧ ، القاهرة ، لا.ت .

(١٤) اليونيني (موسى بن محمد) ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، حيدرآباد ١٩٥٤ ، ص ٨٦ .

(١٥) أيضا ، ص ٨٧ .

(١٦) السيوطي (عبدالرحمن) ، تأريخ الخلفاء ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٣١٣ .

(١٧) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(١٨) أيضا ، ص ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

(١٩) السيوطي ، نفس المصدر ، ص ٤٤٩ .

(٢٠) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

(٢١) الحلو ، صادق ، نفس المصدر ، ص ١٢ .

(٢٢) كوك (ريجارد) ، بغداد مدينة السلام ، ج ١ ، بغداد ، ١٩٦٢ ، ص ٢١٥ .

(٢٣) ابن الفوطي ، نفس المصدر ، ص ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٢٤) الديار بكري ، تأريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، ج ٢ القاهرة ، ١٨٨٤ ص ٣٢١ .

(٢٥) الديار بكري ، نفس المصدر ، ص ٤٢١ .

(٢٦) ابن الفوطي ، نفس المصدر ، ص ٣٢٥ .

(٢٧) الحلو ، صادق ، نفس المصدر ، ص ١٥ .

(٢٨) كوك ، نفس المصدر ، ص ٢١٦ .

(٢٩) ابن كثير ، نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٢٠٠ .

(٣٠) الهمداني ، نفس المصدر ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ٢٦٩ .

(٣١) خصباك (جعفر) ، العراق في عهد المغول ايلخانيين بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ٥٠ .

(٣٢) ابن كثير ، نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٢٠٠ .

(٣٣) ابن الفوطي ، نفس المصدر ، ص ٣٢٥ .

(٣٤) ايضا ، ص ٣١٦ .
(٣٥) ابن الطقطقي (محمد بن علي) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٤٥ .
(٣٦) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٢٨٧ .
(٣٧) ايضا .
(٣٨) ايضا ، ص ٢٨٩ .
(٣٩) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٢٨٩ .
(٤٠) ابن الفوطي ، نفس المصدر ، ص ٣٢٧ .
(٤١) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٢٩٦
(٤٢) أيضا ، ص ٢٩٨ .
(٤٣) أيضا ، ص ٣٢٨ .
(٤٤) المقريزي (أحمد بن علي) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، القسم الثاني ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٧٥ .
(٤٥) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٣٢٤ .
(٤٦) ابن ايبك ، (أبو بكر عبدالله) ، كنز الدرر وجامع الغرر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٨٨ .
(٤٧) الهمداني ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ .
(٤٨) الحلو ، صادق ، نفس المصدر ، ص ٢٤ .
(٤٩) عمر ، فاروق ، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، الشارقة ، ١٩٨٣ ، ص ١٣١ .
(٥٠) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٣٠٦ .
(٥١) ابن العماد ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ .
(٥٢) اليافعي (عبدالله بن اسعد) ، مرآة الجنان وعبرة اليقضان ، ج ٤ دائرة المعرف النظامية ، حيدرآباد ١٣٣٩هـ ، ص ١٥٢ .
(٥٣) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

(٥٤) ابن العماد ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ .
(٥٥) اليفعي ، نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٤٨ .
(٥٦) المقريزي ، نفس المصدر ، ص ٤٢٥ .
(٥٧) الهمداني ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ص ٣٢٠ – ٣٢١ .
(٥٨) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .
(٥٩) ابن كثير ، نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٢٢ .
(٦٠) المقريزي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ص ٤٢٧ – ٤٢٨ .
(٦١) الهمداني ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ص ٣١١ – ٣١٣ .
(٦٢) أيضـا .
(٦٣) المقريزي ، نفس المصدر ، ص ٤٣٠ .
(٦٤) الهمداني ، نفس المصدر ، ص ٣١٣ .
(٦٥) اليافعي ، نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٤٩ .
(٦٦) ابن العماد ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٩ .
(٦٧) ابن كثير ، نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٢٢١ .
(٦٨) الذهبي ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .
(٦٩) المقريزي ، نفس المصدر ، ص ٤٧٦ .
(٧٠) ابن العماد ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .
(٧١) اليافعي ، نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٧٤ .
(٧٢) عبدالحميد ، نوري ، التحدي المغولي وموقف الأمة العربية منه ، دراسات الأجيال ، العدد ٣ ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٦٧ .